المرحوم عبد الغني مسعود

قصة بقلم يوسف الشاروني

كان عبد الغني مسعود يود لو أتم تعليمه الجامعي ، لكنه اضطر ، لفقر والده ثم لموته المفاجيء فيما بعد ، أن يبحث عن وظيفة له بعد ان أتم دراسته الثانوية . وتشاء الظروف أن يعمل بوظيفة كتابية باحدى كليات الجامعة بالقاهرة ، حيث يرى عن كثب ما حُرم منه ، يرى طلبة وطالبات تبدو عليهم نضرة الحياة وهم يتمشون في أرجاء الكلية مبتسمين ، ثم ما يلبثون ان يتخرجوا جماعة بعد اخرى ، وهو قابع في وظيفته لا يأمل في ترقية إلا بعد عمر طويل .

وبعد ثلاث سنوات من عمله زوّجته امه من قريبة له ، على جانب متوسط من الجمال ، وان كانت الايام قد غيرتها كثيراً فيما بعد ، وكانت قليلة الحظ من التعليم ، وان كانت تعرف قراءة الكلمات والاعداد . وقد استأجر عبد الغني ، منذ زواجه ، شقةً في حي متوسط غير بعيد عن عمله ؛ وكان يفضل السير على ان يركب السيارة العامة ، فالسير افضل لصحته وجيبه على السواء ، وهو لا يسير اكثر من ثلث ساعة على اية حال .

وكانت النظرة العارضة على حياة عبد الغني مسعود توحي بالرتابة : فهو يذهب الى عمله صباحاً ويعود الى منزله وقت القيلولة ليتناول طعام الغداء ، ثم ينام ساعة او ساعتين — سواء اكان الوقت صيفاً ام شتاء — ثم يذهب الى المقهى ، فيلعب الطاولة مع احد الجيران او ممن تعرّف بهم في المقهى منذ زمن بعيد ، حتى تشرف الساعة على التاسعة فيعود الى منزله ليتناول العشاء ثم يضطجع مع زوجه إن كانت به رغبة ، ويذهب بعدها في سبات عميق .

هذا هو المظهر الخارجي لحياة عبد الغني مسعود . وكان لمرتبه المحدود دخل كبير في ذلك ، فهو لا يستطيع ان يقصد مثلاً شاطيء البحر صيفاً ، ولا حتى ان يذهب الى السينما ولو مرة في كل شهر . فمرتبه المحدود يتزايد منذ توظف تزايداً لا تكافؤ فيه مع اعباء اسرته . فقد انجبت له زوجه بنتين اولاً ثم ولدين . لهذا كان هذا اللون من الحياة هو انسب لون — في رأيه — يمكن ان يحياه . ومع ذلك فاذا ازددنا اقتراباً من عبد الغني مسعود ، وجدنا ان حياته ليست على هذه الرتابة المميتة ، فهو رجل له مشاكله وعلاقاته وآراؤه وتصرفاته التي تعبر عن هذه الآراء . فهو يدرك ان هناك لوناً من الاختلال الاقتصادي بين الناس ، وانه احد ضحايا هذا الاختلال ، وهو ليس محتاجاً الى ان يقرأ ذلك في الكتب او يسمعه من الآخرين ؛ بل إنه يحسه منذ زمن بعيد ، كلما نظر الى عمه عبد المقصود وثروته الكبيرة ونظر الى نفسه ليجد الهوة شاسعة . وكان يربط دائماً بين البخل والغنى ، فالغني رجل بخيل كعمه عبد المقصود ، والفقير رجل منفاق كأبيه المرحوم ، وإلا لما مات وما ترك له شيئاً . وكان هذا العم لا يكبر عبد الغني بأكثر من عشر سنوات ، ويؤكد عبد الغني ان عمه هذا لم يتزوج بسبب بخله ، وربما كوّن عبد الغني رأيه هذا لأنه يرى بنفسه كيف تثقله مصاريف المنزل والزوجة والاولاد . وهو ما يزال يذكر يوم مات والده وود لو يكمل تعليمه فذهبت امه إلى عمه تقترض منه مبلغاً فتخلص العم من طلبها بمختلف الاعذار ، حتى لم تفز منه بطائل ، فاضطرت ان تبيع حليها ، وراحا ينفقان من ثمنها حتى وجد عبد الغني وظيفته . ولذلك فهو ما يفتأ يصف الاغنياء بالبخل ، ويصب عليهم اللعنات كلما جاء ذكرهم ، ويذكر — على سبيل المثال فقط — عمه عبد المقصود . وكان يحس باتجاه العيون نحوه حين يذكر اسم عمه ذاك ولو مصحوباً بشتائمه .

وقد أملت كل هذه الظروف إرادتها على عبد الغني مسعود فوجهته إلى ان يرسل بابنتيه إلى المدرسة ، وكان يحلم بأن يراهما ذات يوم تسيران بين فتيات الجامعة مشرقتين مثلهن وقد تأبطت كلٌ منهما حقيبتها . وكان لعبد الغني في تلك الاحلام اسباب بسطها لزميله عبد الباسط اكثر من مرة ، فتعليمهما حيناً هو وسيلة إلى عمل يقيهما شر الطلاق إن وقع حظ احداهما مع زوج سيء العشرة ، وهو حيناً آخر سيتيح لهما عملاً بعد تخرجهما فتعاونانه على مصاريف المنزل ، لا سيما وان ابنيه — وما يتلوهما من اولاد بإذن الله — سيدخلون الجامعة في ذلك الحين واحداً بعد الآخر .

وتغيب عبد الغني ذات صباح عن عمله ، ثم شاع بين زملائه انه قد ارسل يعتذر عن الحضور لوفاة والدته ، وكان قد اصابها ضعف الشيخوخة والهم منذ زمن . وفي الساعة العاشرة صباحاً

شوهد عبد الباسط يسير إلى جانب صديقه وراء النعش مباشرة . وفي المساء ذهب زملاء العمل جميعهم ليقوموا بواجب العزاء ويعتذروا عن حضور رئيسهم لعذر قهري لديه .

وولدت زوجه ذكراً ثالثاً ؛ وفي اليوم التالي اعلنت مجانية التعليم . فابتهج عبد الغني مسعود اعظم الابتهاج ، وذهب الى زوجه يزف الخبر ويمتدح عمل الحكومة ووزير معارفها ، فقد وفر عليه ذلك مبالغ لا بأس بها استطاع ان يشتري بها مثلاً في اول عام بدلة له – وكانت بدلته الوحيدة قد تهرأت تماماً – كما اشترى بنطلونين لولديه اللذين يذهبان الآن الى المدرسة وفساتين جديدة لزوجه وبنتيه اللتين اصبحت كبراهما في الرابعة عشرة والاخرى في الثانية عشرة .

وتغيب عبدالغني مرة اخرى عن عمله ، وحين تصفح زملاؤه الصحف عرفوا منها السبب هذه المرة . فقد نعت الصحف عمه عبد المقصود . ولم يكن احد منهم، ولا عبد الغني نفسه، يتوقع ذلك على الاطلاق . فعبد المقصود كان موفور الصحة لا يجاوز الثانية والخمسين من عمره، قليل الهموم فيما يبدو ، ولا سيما وانه لم يتزوج ، والزواج والاولاد في رأي هؤلاء الموظفين اكبر مبعث للهموم في هذه الحياة . وفي المساء توجهوا – يتقدمهم رئيسهم هذه المرة – لتعزية زميلهم في وفاة عمه ، واستفسروا عن كيفية موت العم ، ففهموا انه مات فجأة ، ثم تحدثوا عن الجو الحار ، ثم عن بعض نوادر حدثت في المكتب صباح ذلك اليوم . لكن شيئاً واحداً لم يتحدثوا عنه ، وكانوا مشغوفين بمعرفته ، ولكن ما كان ينبغي لهم ان يتحدثوا فيه ليلة المأتم ، ذلك هو نصيب عبد الغني من ميراث عمه . وهو نفسه لم يكن يعرف ، بل لم يكن يستبعد ان يكون عمه قد بخل بثروته على أقربائه ميتاً كما بخل عليهم حياً، فوهبها لجمعية في بلاد الواق واق مثلاً ، او وهب على الأقل ما يصرح به القانون لأمثاله ان يهبوه لغير اقربائهم .

لكن الايام مرت ، وتبين لعبدالغني مسعود انه مسعود حقاً ، فقد كان نصيبه اكبر مما يحلم به ، وكان تشاؤمه اكثر مما يجب . لقد كان نصيبه عبارة عن عمارة بها ستة طوابق في حي من ارقى احياء القاهرة ، وبكل طابق شقتان متقابلتان ، هذا عدا الفي جنيه نقداً . وكانت العمارة – بما فيها من دكاكين – تدر حوالى مئتين وخمسين جنيهاً كل شهر ، وهو ما يقرب من عشرة امثال مرتبه الذي وصل اليه بعد عشرين عاماً من العمل . وقد ذهب وعاينها قبل ان يوافق على اختيارها نصيباً له ، فلاحظ انه يشوبها شيء من قدم، وان عمه قد شرع في اضافة الطابق السادس قبيل وفاته والعمل لم يكد يبدأ فيه . ولهذا كان اول ما رآه عبدالغني هو ان يصلح من شأن العمارة فيجددها ويكمل الطابق السادس، يؤجر احدى شقتيه ويؤثث الاخرى باثاث جديد لينتقل اليه هو واسرته ، ولديه الجنيهات الالفان تعينه على ذلك جميعه ، وقد يتبقى منها بعد ذلك الكثير .

وهكذا بدأت تقتحم حياة عبدالغني مسعود اهتمامات جديدة ، وشاهده زملاؤه وهو يسأل عن ثمن الاسمنت وثمن الحديد وثمن الاخشاب والبلاط والمتر المكعب من الاسمنت المسلح. واخذ يتخلف عن مقهاه المفضل لانه مشغول باتفاقاته مع المقاولين والبنائين ؛ بل لقد اضطره الانشغال ذات مرة الى الجرأة والتغيب عن عمله لاول مرة بسبب غير المرض او غير وفاة قريب له. وعندما اقبل اول الشهر وقبض اجر الشقق والدكاكين – من بواب العمارة محمد يس – ثم قبض مرتبه احس الفرق الهائل وادرك ضآلة المرتب الذي يأخذه . وادرك انه لم يعد يعتمد

عليه في امور حياته ، وانه ليس مديناً لهذا المرتب على الاطلاق بهذا اللون الجديد من الحياة . وقد سأله اكثر من شخص لماذا يستمر في عمله ؟ وقد فكر لماذا يستمر حقاً في عمله؟ ربما يستمر فيه بحكم التعوّد ، فلا بد له ان يخرج صباحاً ليعود ظهراً ، كما ان هذا العمل يضيف الى ايراده مبلغاً — مهما كان قليلاً — فان له فائدته ، ثم... ثم حدث ما جعله يعدل نهائياً عن تفكيره في ترك وظيفته ، فقد رقّي عبدالغني اخيراً رئيساً — ولو على جماعة صغيرة — لاول مرة بعد عشرين عاماً في وظيفته — ولم تكن هذه الجماعة سوى زملائه ، فقد كان هو اقدمهم عملاً . وكأنما اقبلت عليه هذه الترقية التي كان يستحقها وينتظرها منذ سنين — لتجعله ينسجم مع التطور الجديد الذي اقبل عليه في حياته .

ولقد تم بناء الطابق السادس بعد اشهر قليلة ، وزحم عبدالغني شقته الجديدة بأثاث جديد فرحت به زوجه وفتاتاه على وجه اخص . ولكنه نظر إلى زوجه فوجدها لا تتناسب — بطرحتها السوداء ووجهها المتجعد — وجدة هذا الأثاث، ولا تتناسب وهذا الحي الراقي وهؤلاء الساكنين الوجهاء في العمارة التي هو صاحبها، ومرّ به خاطر كان يطرده كلما همّ به، فهو الآن قادر على الزواج بأخرى ، لكنه كان ما يزال عالقاً بمثله القديمة وعاداته الاولى التي لم تنفصل عنه تماماً . كما انه آثر ان يقتفي أثر عمه بالمحافظة على ما لديه من مال وإضافة كل قرش ممكن ، فلا يجعلن اباه المرحوم مثالاً له على الاطلاق ، فهو إن لم يكن لعمه ما يبرر بخله، فله في اولاده ما يبرر له ان يحفظ ماله من الضياع. لهذا قاوم — او ارجأ على الاقل — فكرة الزواج الجديد ، ولهذا لم يغير مقهاه وان كان اقل تردداً عليه ، ولهذا ظل يذهب الى عمله سيراً على الاقدام ، فقد كانت العمارة لا تبعد اكثر من ربع ساعة عن عمله .

وهكذا اخذت تدخل حياة عبدالغني مسعود حياة جديدة، فهناك خادم وخادمة في المنزل ، وهناك بوّاب العمارة محمد يس وابنه عثمان اللذان يجيبانه كلما شاهداه صاعداً او هابطاً، وهناك الجارات الجديدات المتأنقات المتعطرات اللاتي يفِدْن لزيارة زوجه وان كانت حارات الحي القديم ما زلن يأتين لرؤية ما لم تقع عليه عيونهن من قبل ، مما كان يثير فيه احاسيس متناقضة: إحساس الزهو بأن الدنيا قد اقبلت عليه هو من دون ازواجهن، واحساس الاشمئزاز من ان يكشفن بدخولهن وخروجهن لسكان عمارته الوجهاء عن ضعة ماضيه . وكان يرى ان زوجه هي المسئول عن هذا اللون المريب من الزيارات . كذلك كان هناك زملاء الامس في عمله وقد اصبحوا اليوم مرؤوسيه : انهم يلاحظون في اشفاق وتهيب ان عبد الغني مسعود قد اصبح يختلف عنهم ، انه ما يزال يبتسم لهم احياناً ولكنها اقرب الى ابتسامة المتفضل منها الى ابتسامة الزميل. وكأنما كان عبد الغني مسعود يخشى ان يحول ماضيه بينه وبين اجادة دوره في الرئاسة، فهو يحاول ان يمثل دوره بطريقة قد تصل فيها المبالغة الى حد مضحك، ومع ذلك فقد كان احياناً ينادي زميله القديم عبدالباسط ليسأله عن ثمن الاسمنت او البلاط او ليكلفه بأن يتفق له مع احد المقاولين . انها احاديث فيها طابع الصداقة ولكنها تشير من ناحية اخرى الى اهتمامات عبد الغني مسعود الجديدة والتي يريد ان يظهرها لزميله القديم .

واعلنت الحكومة ذات يوم انها قررت تخفيض ايجارات السكن بنسبة ٢٠ ٪ فرؤي عبد الغني في ذلك اليوم ينتقد الحكومة انتقاداً شديداً امام مرؤوسيه ، حتى فزعوا ان يصيبه مكروه ؛ فقد كان يتهم الحكومة بأنها تلجأ الى تلك الوسائل الرخيصة من رشوة الناس لتضمن تأييدهم . ولم يذكر ابداً ان ايراده سينقص خمسين جنيهاً تماماً وان كان سامعوه قد فطنوا الى شيء من هذا القبيل. بل لقد قال لهم في انفعال : الا تدرك الحكومة ان « اصحاب الاملاك امثالنا » يتأثرون بالغلاء كما يتأثر به باقي الخلق ، فلماذا تتعقبنا دون سوانا ؟ وكان يجد من مرؤوسيه اذاناً صاغية لكل ما يقول ، وموافقة تامة لكل ما يعرض من امور ، بل وتحمساً في بعض الاحايين . وقد نسي انهم كانوا يفعلون ذلك دائماً امام رؤسائهم السابقين اشفاقاً لا اقتناعاً ، وكان لا يشذ الآن منهم الا عبد الباسط الذي كان يعارضه احياناً لكي يمحو عبثاً ذلك الفارق الجديد الذي ينبث في اصرار بينهما . لكن عبد الباسط ما لبث ان عدل عن تلك المعارضة لأنه وجد ان عبد الغني لا يُصغي ابداً الى اعتراضاته او لا يفهمها ، فهو يستمر في حديثه، وليس على عبد الباسط الا ان يأخذ دور المستمع والموافق فقط .

وذهب عبد الغني مسعود الى شاطيء البحر صيفاً بعد صيف. واقترب ولدان من اولاده الثلاثة من التعليم الثانوي ، بينما اقتربت احدى الفتاتين من ابواب الجامعة. وهنا رأى عبد الغني ان تكتفي ابنتاه معاً بما تلقنتاه من تعليم ، وشجعته على ذلك

زوجه التي كانت تلاحظ تودد شاب من سكان العمارة المرموقين الى ابنتها وكثرة تردده عليهم بمناسبة وبغير مناسبة . واعلن في المقهى رأيه في مسألة تعليم الفتاة تعليماً جامعياً قائلاً ان الفقراء هم الذين يلجأون اليه لكي يحملوا فتياتهم على العمل الخارجي لأنهن قد لا يجدن الزوج المرموق او الحياة الهنية اليسيرة . وكان يعتقد – فيما بينه وبين نفسه – ان لابنتيه من الجمال والمال ما يغنيهما عن كل تعليم وما يضمن لهما مستقبلاً موفقاً . ولهذا اعلن رأيه مرة اخرى قائلاً ان الفتاة اذا بلغت سن الزواج – وهو يبدأ من السابعة عشرة في رأيه – فعليها ان تتجنب الخروج من منزلها لئلا تقتحمها اعين الشباب وتقع فريسة لهم .

وذات يوم لاحظ ان ابنه احمد قد جاءه باكياً اثر عودته من المدرسة، فلما سأله عن سبب بكائه اخبره بأن عثمان ابن بواب عمارتهم قد تفوق اليوم عليه في مباريات المدرسة الرياضية . وسمع عبدالغني مسعود في اليوم التالي وهو يبدي رأيه في التعليم المجاني وكيف انه سوّى بين اولاد « امثالنا اصحاب الاملاك واولاد البوابين » ومضى يسأل مرؤوسيه عن مدرسة خاصة لا يدخلها الا الخاصة .

ولقد صدق حدس الأم حين ارسل الشاب المرموق رسله يريد ان يخطب ابنة عبد الغني مسعود الكبرى ، وكانت الأم مرحبة به لما ينتظره من مستقبل عظيم ، كما كانت تدرك ان ابنتها تميل الى هذا الشاب ، وتود لو اتخذته لها زوجاً ، لا سيما بعد ان صُرفت عن التعليم ، فأصبح الزواج هو شاغلها الوحيد. لكن والدها كان له في المسألة رأي آخر ، فقد رأى ان يستفسر الرسل اولاً عما يملك هذا الشاب ، وعما اذا كان له ايراد غير مرتبه يستطيع ان يلجأ اليه وقت الحاجة . ولقد انقطع الشاب بعد ذلك ولم يعد احد يتحدث في الموضوع ، ربما لأن الشاب لم يكن يملك شبابه وعلمه ووظيفته ، وربما لأنه غضب من مساومة بهذا اللون في موضوع زواجه . وقد سبّب عدول الشاب عن رغبته شجاراً عنيفاً بين عبد الغني وزوجه مما حمله على ان يعيد النظر في مشروع قديم راوده منذ اكثر من خمس سنوات .

وبدا له اخيراً ان ينفذ المشروع ، وقد أغرته على ذلك فتاة اسمها سامية ، وفدت حديثاً على الكلية التي يعمل بها موظفاً ، وقد فتحت امامه ابواب الأمل بما صرحت به ذات مرة لمجلة الكلية التي تسأل الطالبات المستجدات عن رأيهن في مسألة الزواج . فأجابت سامية بأنها فتاة واقعية لاتهمها المسائل العاطفية ، ولما كان المال هو الذي يحسم الأمور في مجتمعنا ، فهي لن ترضى إلا بزوج غني . فلما قيل لها بان هذا الزوج الغني قد يكون كبير السن اجابت بأن العمر لا يهمها كثيراً ما دام شكله مقبولاً وجيبه عامراً . وهكذا قرّر ان يحاول محاولته مع سامية تلك وان يقنعها بالعدول عن اتمام دراستها ، فزواج الفتاة هو مستقبلها في النهاية على اية حال. فبحث عنها حتى عرفها، وأوجد المناسبة التي استطاع ان يحدثها فيها فاستلطفها كثيراً . وكاد يهم بأن يفاتحها بما اعتزم عليه من امر ، يبحث عن الفرصة المواتية، لولا ان حدث ما لم يكن في الحسبان.

فقد تغيب ذات يوم عبد الغني مسعود عن عمله ، وعندما قرأ مرؤوسوه الصحف ادركوا السبب وإن فغروا افواههم. فقد نعت الصحف هذه المرة عبد الغني مسعود نفسه . مات فجأة كما مات عمه وكما مات ابوه من قبل . قد يكون الامر وراثة ، وقد يكون مجرد صدفة . شرب القهوة عصراً ، وارتدى بذلته ينوي الخروج لمقابلة بعض رجال الاعمال (ويبدو انه كان ينوي شراء عدد من الاسهم في شركة ما) لكنه ما لبث ان احس بوخز شديد ناحية القلب ، ولم تفكر زوجه في احضار طبيب – رغم انها لم تعرف شيئاً عما انتواه بشأنها – فلم ترَ في الامر كبير خطر ، ولاحظت بعد نصف ساعة ان عضلاته قد استرخت وظنت انها نوبة ذهبت ، لكنها حين اقتربت منه ادركت ان روحه هي التي ذهبت ، فولولت لتجمع الناس . وما انتشر الخبر في الصحف حتى اقبل اصدقاؤه ومرؤوسوه وجيرانه وسكان عمارته وبوابها وابن بوابها ليشيعوه .

وفي المكتب – حيث كان يعمل المرحوم عبدالغني مسعود – لا يزال زملاؤه ومرؤوسوه يتندرون قائلين بأن زميلهم – او رئيسهم – الراحل ما يزال يطالب في العالم الآخر بعدم ايجار المساكن هناك – والا يتعلم ابن صاحب عمارة مع ابن بوابها ، والا تتعلم الفتيات تعليماً جامعياً ، وانه ما يزال يسأل عن ثمن جوال الاسمنت ومتر البلاط .

القاهرة **يوسف الشاروني**

توجد في ادارة « الآداب » كمية محدودة من مجموعة السنة الاولى يمكن الحصول عليها بالثمن التالي :

مجلدة ٢٥ ليرة

غير مجلدة ٢٠ ليرة